علماء وأعلام

شيخ الشريعة الإصفهاني

فتح الله بن محمد جواد النمازي الشيرازي الإصفهاني (١٢٦٦ هـ - ١٣٣٩ هـ). من كبار مراجع الشيعة الإثني عشريَّة ومرجع التقليد بعد الميرزا محمدتقى الشيرازي، وأبرز القيادات الدينية والسياسية في إيران والعراق في عصره، ويُعرف ويُشتهر باسم شيخ الشريعة الإصفهاني.

■ ولادته ونسبه

ولد فتح الله غروي الأصفهاني في ١٢ ربيع الأول ١٢٦٦ هـ في أصفهان. كان والده الحاج ميرزا محمد جواد من العائلة المعروفة نمازي الشيرازية ومقيماً في أصفهان. كتب محسن أمين عن سبب شهرته بـ"نمازي" أن جده، الحاج محمد علي نمازي، كان معروفاً بالورع والتقوى، وبسبب مداومته على النوافل والفرائض، اشتهر باسم نمازي.

■ حياته العلمية

بدأ شوطه العلمي في مدينة إصفهان، وكانت هذه المدينة يومها حاضرة علمية شهيرة، فتلقّى مبادئ العلوم والمقدّمات، ثمّ حضر دروس العلماء البارزين ومجالسهم النافعة حتّى ارتقى سُلّم الفضيلة.

سافر إلى مشهد المقدّسة والتقى بأجلّة علمائها وحاورهم، فكشف بذلك عن مواهبه العلمية الرفيعة، بعدها عاد إلى موطنه إصفهان متصدّياً للتدريس بعد أن نال درجة الاجتهاد، فانصرف إلى البحث والتعليم، وحضر مجلسه العلمي جمع من الفضلاء والأساتذة الذين أعجبوا بطريقته.

ثمّ سافر إلى العراق عام ١٢٩٥هـ، وفي مدّة قصيرة استقطب حوله عدداً من الأفاضل الذين انجذبوا إلى موهبته العلمية، فتحلّقوا حوله دروساً في الفقه والأُصول وغيرهما من علوم الشريعة، وبعد عام ١٣١٣هـ انحصر نشاطه في التدريس والبحث والتأليف والإفتاء، والاهتمام بشؤون المسلمين، ولُقّب حينذاك بشيخ الشريعة.

احتلّ مكانة علمية رفيعة بين أقطاب الفضيلة وأعلام الفقه، وتخرّج على يديه عدد من كبار العلماء والمحقّقين، وقد مال الناس إلى أخذ الأحكام الشرعية عنه بعد وفاة السيّد محمّد كاظم الطباطبائي اليزدي عام ١٣٣٧هـ، حتّى إذا تُوفّي الشيخ محمّد تقي الشيرازي عام ١٣٣٨هـ أصبح شيخ الشريعة المرجع الديني الأعلى لأتباع أهل البيت، فنهض بمسؤوليته، وخرّج أجيالاً على طريق المعرفة والعمل، وترك مؤلّفات ورسائل عديدة.

■ أساتذته

الشيخ حبيب الله الرشتي، الشيخ محمّد حسين الكاظمي، الشيخ محمّد صادق التنكابني، الشيخ محمّد باقر الإصفهاني، الشيخ عبد الجواد الخراساني، الشيخ محمّد تقي الهروي، الأخوان السيّد محمّد هاشم الموسوي الخونساري والسيّد محمّد باقر.

حاز الشيخ فتح الله النمازي على إجازة الاجتهاد من بعض هؤلاء الأساتذة.

■ من تلامذته

الشيخ محمّد محسن المعروف بآقا بزرك الطهراني؛ السيّد حسين الطباطبائي البروجردي؛ السيّد محمّد هادي الحسيني الميلاني؛ السيّد محمّد الحجّة الكوهكمري؛ الشيخ ضياء الدين العراقي؛ السيّد علي اليثربي الكاشاني؛ السيّد عبد الهادي الشيرازي؛ السيّد أبو القاسم الخوئي؛ السيّد أحمد الخونساري؛ الشيخ عباس القمّي.

■ مؤلفاته

القول الصراح في نقد الصحاح؛ إبانة المختار في إرث الزوجة من ثمن العقار؛ إنارة الحالك في قراءة ملك ومالك؛ صيانة الإبانة عن وصمة الرطانة؛ إفاضة القدير في أحكام العصير؛ مناظرة مع الآلوسي البغدادي؛ رسالة في التفضيل بين جلود السباع وغيرها؛ رسالة في علم الباري بالممتنعات؛ رسالة في العصير العنبي؛ رسالة في المتمّم كرّاً.

■ وفاته

تُوفّي في الثامن من ربيع الثاني ١٣٣٩هـ بالنجف الأشرف، ودُفن في الصحن الحيدري للإمام علي.

مقالة / الجزء الثاني والأخير

الاجتهاد عند الشيعة وتاريخه لدى مدرسة أهل البيت عليهم السلام

الكاتب: محمدعلي التسخيري

الأبحاث و المقالات المنشورة لا تعبر عن رأي «الآفاق» بالضرورة، بل تعبر عن رأي أصحابها

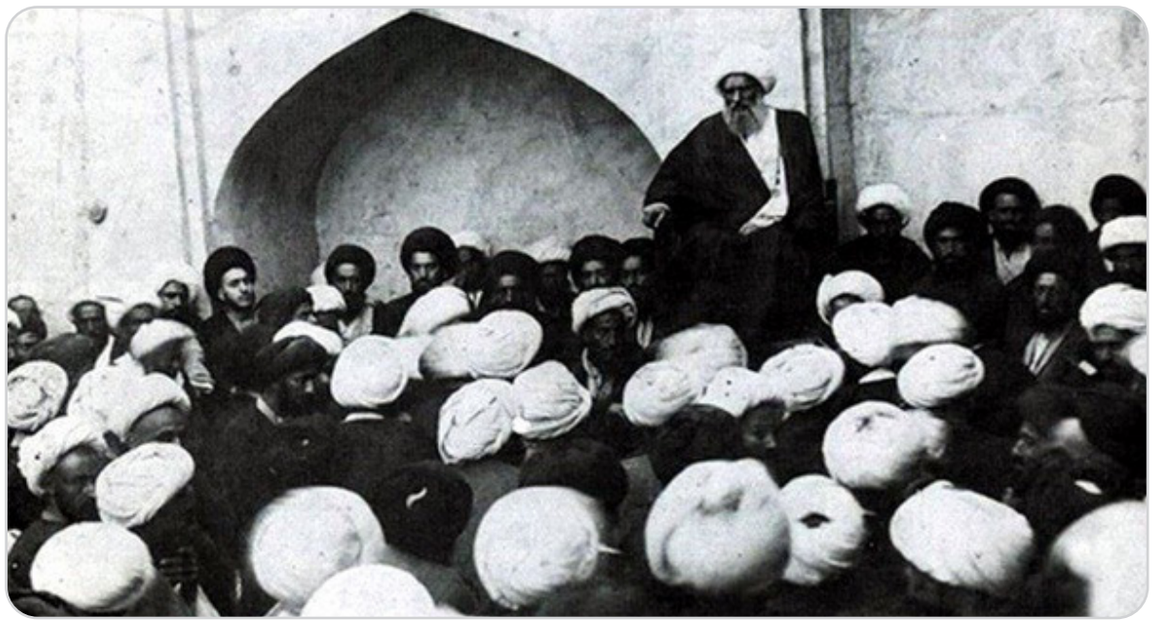

الخلاصة: تتناول المقالة "الاجتهاد عند الشيعة وتاريخه لدى مدرسة أهل البيت عليهم السلام" لمحة تاريخية عن تطور الاجتهاد في الفقه الشيعي. يبدأ الكاتب بتوضيح أن عملية الاجتهاد كانت مصاحبة لعصر المعصومين عليهم السلام مع قلة الحاجة إليه في زمنهم. بعد غيبة الإمام المهدي عجل الله فرجه، تفتحت الذهنية الأصولية لدى الشيعة وبدأ الاجتهاد في التطور ليواجه التحديات الفكرية والفقهية. المقالة تتناول العوائق التي واجهت مسيرة الاجتهاد مثل الحركة الإخبارية وتأثير الشخصيات الكبيرة مثل الشيخ الطوسي. في النهاية، يوضح الكاتب أن الاجتهاد في الفقه الشيعي ضروري لمواكبة التحولات والتطورات المستمرة في الحياة.

■ البحث الثاني: لمحة تاريخية عن الاجتهاد لدى مدرسة أهل البيت عليهم السلام

طبق ما تقدّم فإن عملية الاجتهاد كانت تصاحب حتى عصر المعصوم مع قلّة الحاجة إليه في زمانه، وإذا كان علم الأُصول مظهراً جليّاً من مظاهر الاجتهاد فإنا نستطيع أن نفسّر كيف تأخّر نشوء هذا العلم لدى مذهب أهل البيت عليهم السلام عنه لدى المدارس الإسلامية الأُخرى، ذلك أن هذه المدرسة كانت تؤمن بامتداد عصر النصّ الشرعي إلى حوالي مئتين وخمسين عاماً بعد الفترة التي اعتقدت فيها المدارس الأُخرى بانتهاء عصر النصّ المباشر من المعصوم وهو الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله، وبمجرد أن انتهى عصر الغيبة الصغرى للإمام المهدي وبدأ عصر الغيبة الكبرى تفتحت الذهنية الأُصولية ودرست العناصر المشتركة وإن كانت بذور الفكر الأُصولي قد تشكّلت في أذهان أصحاب الأئمة عليهم السلام منذ عصر الصادقين (الإمام الباقر والإمام الصادق عليهما السلام) وربّما أُلفت رسائل في ذلك.

ومنذ ذاك رفضت مدرسة أهل البيت عليهم السلام الاجتهاد بالمعنى الخاص ورأت فيه اتّباعاً للظنّ دون دليل معتبر ومنفذاً للآراء الشخصية والاستحسانات الطارئة وناقشت الأدلة التي ذكرتها المدارس الأُخرى وجاءت عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام روايات كثيرة ضد هذا المعنى، واعتقدت هذه المدرسة أن النصوص الشرعية، والقواعد الرائعة المعطاة كفيلة بتغطية كل الوقائع المستقبلية وملائمة الإسلام لكل الظروف والتغيّرات فإذا كانت القواعد الشرعية متناهية فإنّها قادرة على شمول مصاديق غير متناهية، وأثبتت ذلك عملياً خلال القرون المتمادية. وقد أيّدتها في هذا المنحى بعض المدارس السنّية كالظاهرية التي شنّت حملة ضد القياس مثلاً.

وعلى أي حال فربّما أدّى اشتراك لفظ الاجتهادين بين المعنى الخاص إلى التحرّز عن اللفظ وتأليف الكتب ضد (الاجتهاد) ويقصد به المعنى الخاص طبعاً من مثل مصنّف عبد الله بن عبد الرحمن الزبيري الذي أسماه "الاستفادة في الطعون على الأوائل والردّ على أصحاب الاجتهاد والقياس"، وصنّف إسماعيل بن عليّ النوبختي في عصر الغيبة الصغرى كتاباً في الردّ على الاجتهاد، كما ذكر الرجالي الشيعي المعروف النجاشي في كتابه.

ويرى أُستاذنا الشهيد الصدر أنّ الكلمة ظلّت هكذا حتى رأينا المحقّق الحلّي المتوفى سنة (٦٧٦ هـ) في كتابه "المعارج" يفرق بين المفهومين بعد أن يعرّف الاجتهاد بأنه: "بذل الجهد في استخراج الأحكام الشرعية".

ويرى الشهيد مرتضى المطهري أنّ روح التقارب كانت سائدة رغم الخلاف، فبمجرد أن ينفتح باب التقارب باتّساع مفهوم مثلاً يتم التقارب بشكل طبيعي، والاجتهاد أحد موارده، والاجماع كذلك فإن مدرسة أهل البيت عليهم السلام ترفض النظر للاجماع حجّة برأسه ولكنها طرحته وقبلته بعد اتّساع مفهومه لشمول الاجماع الكاشف عن رأي المعصوم. ومن ذلك اعتبار الأدلة أربعة قياساً على الأدلة الأربعة لدى المدرسة السنّية، ولكن بتبديل القياس أو الاجتهاد إلى العقل ولكن في أحكامه القطعية الكاشفة عن الحكم الشرعي عبر قاعدة التلازم.

والملاحظ أنّ كل علماء الإمامية الذين حمّلوا على الاجتهاد كانوا - كما هو الظاهر - يطبّقون عملية الاجتهاد بمعناها الأعم.

والملاحظ أنّ المسيرة الاجهادية الممتدة والمفتوحة لدى مدرسة أهل البيت عليهم السلام واجهت بالإضافة للعرقلة السابقة الناشئة من شيء من الخلط بين المفهومين العام والخاص للاجتهاد واجهت حالتين أُخريين كادت الثانية منهما تعصف بالمسيرة الاجتهادية على الاطلاق وتغلق الباب تماماً.

■ الحالة الأولى

فكانت الفترة التي تلت حياة شيخ الطائفة رحمه الله فقد كانت عظمة هذا الرجل ومؤلّفاته وشخصيته مسيطرة إلى الحد الذي امتنع معه العلماء بعده من اظهار أي نظر جديد. وكان هذا الوضع سائداً حتى بزغ نجم العالم الجليل ابن إدريس الحلّي فراح يتحدّى ذلك الوضع ويسدي بذلك خدمة كبرى لمسيرة الاجتهاد.

■ الحالة الثانية

فكانت الحركة الإخبارية التي بدأت منذ حوالي أربعة قرون على يد الشيخ الملاّ أمين الاسترآبادي الذي استطاع أن يجذب إليه بعض العلماء وقد امتازت مدرسته بالوقوف ضد حجّية الحكم العقلي مطلقاً ورفض الاجماع بل وحتى التوقف عن العمل بالظواهر الكتابية إلاّ إذا فسرتها أحاديث أهل البيت عليهم السلام وادّعت أن كل الأحاديث الواردة في الكتب الأربعة الرئيسية للإمامية وهي "الكافي" و"التهذيب" و"الاستبصار" و"من لا يحضره الفقيه" صحيحة ومعتبرة بل هي قطعية الصدور، وراحت تنكر أي تخصّص في الدّين وتنفي التقليد فعلى الناس مراجعة الروايات مباشرة والعمل بها.

والحديث هنا طويل إلاّ أن هذا الخطر ارتفع بظهور مجموعة من العلماء على رأسهم العالم الكبير الوحيد البهبهاني وغيره ممّا فتّت هذا المسلك ولم يعد له وجود - إلاّ نادراً - بعد أن كاد يشيع الجمود والانحراف بالمسيرة الفكرية الصاعدة.

وجاءت الضربة القاضية له على يد المرحوم الشيخ الأنصاري أعلى الله مقامه.

■ ملاحظات حول المرجعيات الشيعية عبر الزمن وفي الوقت الحاضر

بعد أن انتهى عصر الغيبة الصغرى للإمام المهدي عجل الله فرجه حيث كان السفراء الأربعة يمثلون الوسائط المباشرة بينه عليه السلام وبين الشيعة وبدء عصر الغيبة الكبرى بدأت في الحقيقة مسيرة الاجتهاد الشيعية بعد أن كانت تعتمد على الأئمة من أهل البيت عليهم السلام، فلا يجد العلماء حاجة ماسّة إلى الاجتهاد إلاّ في الحالات التي لا يتسنّى فيها الاتّصال بالمعصوم، وتشكّلت شيئاً فشيئاً المرجعيات الشيعيّة بشكل طبيعي.

■ الملاحظة الأولى

إنّ لفظ المرجعية لم يكن متداولاً بشكل عام إلاّ في العصور الأخيرة.

■ الملاحظة الثانية

إنّ قوّة الشخصية وقدرتها الفكرية وأحياناً التنظيمية هي التي كانت تفرض نفسها على الساحة لا أن هناك منصباً يملؤه أكفأ الأشخاص بشكل طبيعي.

■ الملاحظة الثالثة

في حالة تعدّد الاتجاهات أو تعدد الشخصيات اعتاد الشيعة على تعدّد المرجعيات ولم يجدوا في ذلك أي حرج. وهذا أمر شهدناه في العصر الحاضر. ولا نجد فيه ضيراً مادام الأمر في حدوده الضيّقة (الاجتهادية أو الشخصية) أما إذا عبر إلى الساحة الاجتماعية فإنّ المرجعية أما أن تتصدى للقيادة أو أن توكل المرجعيات الأمر إلى الولي المنتخب للقيادة؛ وتبقى في إطار التقليد والاجتهاد الحرّ.

■ الملاحظة الرابعة

إنّ التفريع الفقهي المنظم والبحث الأُصولي العلمي بدأ بعد تحقّق الغيبة الكبرى لأنّ الشيعة لم يكونوا بحاجة ماسة إليهما في زمان الأئمة عليهم السلام أو نوابهم الخاصّين الذين كانوا يتّصلون بهم باستمرار.

وبعد ذلك بدأ عصر التدوين ماراً بمرحلة تجميع المصادر والروايات إلى الحدّ الممكن حيث صدر كتاب "الكافي" للمرحوم الكليني وكتاب "من لا يحضره الفقيه" للمرحوم الصدوق - وهي مرحلة تكرّرت بعد ذلك - حينما اكتشفت مصادر جديدة للروايات من جهة وتمّ التركيز على الإخبار وساد اتّجاه الإخباريين فتمّ إصدار موسوعات حديثية جامعة من أمثال "وسائل الشيعة" للشيخ الحرّ العاملي و"بحار الأنوار" للشيخ المجلسي و"الوافي" للفيض الكاشاني.

■ الملاحظة الخامسة

إنّ التفاعل بين المسيرتين السنيّة والشيعيّة مرّ بفترات قوة وضعف. فقد كان على أشدّه في عصر الأئمة الكبار، واستمر قوياً في عصر الفقيهين القديمين ابن عقيل وابن الجنيد - كما يسمّيها المرحوم ابن فهد الحلّي - حيث قبلا بعض المسلّمات لدى المذاهب السنيّة كالقياس، ولكنّ العلماء التالين كالشيخ المفيد والسيّد المرتضى وغيرهما رفضوا ذلك لأنّه لا ينسجم مع اتّجاهات فقه الإمام الصادق عليه السلام وناقشوه بشكل علمي.

فالتعامل العلمي هو المنهج، والحقّ هو المتّبع دون تعصّب أو تكفير. وقد ذكر بعض الكتّاب أن بعض علماء الشيعة الذين خلفوا الشيخ الطوسي كان يعمل بالإجماع الذي ينقله مالك عن أهل المدينة في موطئه لكشفه عن رأي المعصوم.

وهذا التعامل العلمي الموضوعي موروث من تعامل أئمة أهل البيت عليهم السلام أنفسهم وهو الذي جعل أربعة آلاف طالب يلتفّون حول الإمام الصادق عليه السلام ينهلون من علومه وفيهم كثير من غير الشيعة، وقد روت كتب أهل السنّة ما يقرب من إثني عشر ألف حديث عن أهل البيت عليهم السلام.

■ الملاحظة السادسة

إنّ تحديد المصطلحات وعدم تحديدها لعبا دوراً مهماً في تكوين الاتّجاهات المختلفة والمتعارضة إلى حد الطرد أحياناً. وهو آفة هذه النزاعات الفكرية دائماً. وكمثال على ذلك نجد أن مصطلحات الاجتهاد والعقل والإجماع وعدم وضوحها تركت آثاراً سلبية وربّما خلقت اتّجاهات متعارضة كان لها أن لا تحدث لو تمّ توضيحها بدقّة.

■ الملاحظة السابعة

وقد لعبت عوامل الزمان والمكان والسياسة دوراً كبيراً في تلوّن هذه المسيرة وتوحّدها أو تمزّقها ونجد بعض الأمثلة في:

١.نموّ علمي الفقه والأُصول بعد عصر الأئمة عليهم السلام.

٢.تعاظم المرجعية الشيعيّة زمن البويهيين.

٣.نكسة الشيخ الطوسي بعد مجيء السلاجقة وقائدهم (طغرل بك) ثم انتقال الشيخ الطوسي إلى النجف.

٤.دور القائد "خدابنده" في دعم العلاّمة الحلّي بعد أن أقنعه العلاّمة فاعتنق التشيّع.

٥.دور الصفويّين في تقوية الفقه الشيعي ثم في تشجيع الحركة الإخبارية.

٦.دور عامل المكان في تقوية الشيخ المفيد، وفي هزيمة الحركة الإخبارية على يد الوحيد البهبهاني.

■ الاستنتاج

أن للاجتهاد عند الشيعة مفهومان: عام وخاص، وأنه ضروري، ما دام في الأرض إنسان، يعمل الإسلام على قيادته نحو السعادة، وأن هناك عوامل أغلقت باب الاجتهاد، ولكن مراجع الشيعة سعوا ما بوسعهم أن يجتهدوا في استنباط الأحكام الشرعية وإعطاء الحكم الإلهي للمسألة المبتلى بها.

انتهت

المصدر: التسخيري، محمّد علي، حول الشيعة والمرجعية في الوقت الحاضر، نشر المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام، الطبعة الثانية، ١٤٢٦ ه.

تعريف بكتاب

صدر عن مؤسسة الدليل للدراسات والبحوث كتاب "صورة المهدي بين التراث ومخيال الحداثيين" للباحث الدكتور عدنان هاشم الحسيني مسؤول وحدة الفكر الإمامي في المؤسسة، الذي ناقش فيه بأسلوب منطقي بعض ما تعرض إليه كتاب "صورة المهدي المنتظر في المتخيل الإمامي الاثني عشري".

هذا الكتاب يمثل نقدا لما جاء من متبنيات في كتاب "صورة المهدي المنتظر في المتخيل الإمامي الاثني عشري"؛ إذ تصرح فيها مؤلفته أن ما ذكره علماء الإمامية في كتبهم الحديثية ما هو إلا صناعة تخيلية (مخيالية) ذات أنماط تقنية معينة اتبعها أولئك العلماء، غاضة النظر عن الضوابط الرصينة التي سطروها على مر الزمان؛ فجاء هذا الكتاب دفعا لعوامل اللبس والوضع التي ذكرت في البحث، مع قراءة حديثة للنص الديني تنسجم مع معطياته الواقعية، وكل ذلك ضمن المنهج العقلي والنص الديني المنضبط.